مفهوم الأمة
في
القرآن الكريم

إعداد

د/ محمد عبد الكريم محمد مراد كاسب

مدرس التفسير وعلم القرآن بكلية أصول الدين بالقاهرة

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، الحمد لله صاحب كل نعمة وولي كل فضل، والصلاة والسلام على من أنزل عليه القرآن (تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)[١] سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد:

فإن خير ما اشتغل به المشتغلون وأفضل ما أفنيت فيه الأعمار خدمة كتاب الله تعالى، مصدر عزة هذه الأمة ورفعتها وعلو شأنها، ذلك الكتاب الذي لا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء ولا تنقضي عجائبه (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب)[٢] ومهما كتب الكاتبون وبحث الباحثون فسيظل هذا الكتاب أبدا متجددا يعطي اليوم عطاء الأمس لأنه كتاب خالد يخاطب الناس جميعا في كل العصور.

ومن ألوان البحث في تفسير هذا الكتاب ما يسمى بالتفسير الموضوعي، وهو لون من ألوان التفسير نحن في أشد الحاجة إليه، إذ عن طريقه يتم إبراز إعجاز القرآن الكريم على وجهٍ يلائم العصر، ثم هو يفي بحاجات هذا العصر إلى الدين، فضلا عن تأصيل الدراسات القرآنية مما يكون له أعظم الأثر في إبراز علوم قرآنية جديدة ودفعها نحو التأصيل والاكتمال[٣].

ومن هذا اللون من ألوان التفسير جاء هذا البحث حول مفهوم الأمة في القرآن الكريم، فيه أظهرت المعاني اللغوية لهذا اللفظ، ثم ذكرت وروده في القرآن الكريم بمعان عدة، وبينت صفات الأمة الواحدة كما سماها القرآن الكريم ومظاهر وحدتها واتفاقها حتى يتضح مضمون هذا اللفظ وما جاء للدلالة عليه في القرآن الكريم وصولا بعد ذلك إلى ما ينبغي أن تكون عليه تلك الأمة الواحدة بجملة من الاقتراحات والتوصيات.

---

(١) سورة النحل / الآية ٨٩ .

(٢) سورة ص / الآية ٢٩ .

(٣) يراجع في هذا الشأن كتاب المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد .

والله تعالى أسأل أن أكون قد وفقت فيما كتبت، هذا وما يكون فيه من توفيق فمن الله، وما يكون من خطأ أو تقصير فمني ومن الشيطان وحسبي قول ربي (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)[1].

(١) سورة هود / الآية ٨٨ .

الأمة في اللغة

جاء في كتاب المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني[1]:

والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا، وجمعها أمم، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ** ﴾[2] أي كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع، فهي من بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسرفة، ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقته كالعصفور والحمام إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع.

وقوله تعالى: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾[3] أي صنفاً واحداً وعلى طريقة واحدة في الضلال والكفر، وقوله: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾[4] أي في الإيمان، وقوله: ﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ** ﴾[5] أي جماعة يتخيرون العلم والعمل الصالح يكونون أسوة لغيرهم، وقوله: ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ** ﴾[6] أي على دين مجتمع، وقوله: ﴿ **وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** ﴾[7] أي حين، وحقيقة ذلك: بعد انقضاء أهل عصر أو أهل دين، وقوله: ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ** ﴾[8] أي قائما مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة، وقوله: ﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ** ﴾[9] أي جماعة[10].

(٢) هو الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم أصله من أصفهان وعاش ببغداد له تفسير باسمه والمفردات في غريب القرآن توفي سنة ٥٠٢هـ . الأعلام للزركلي ٢/ ٢٧٩، ومعجم المفسرين تأليف: عادل نويهض ١/ ١٥٨-١٥٩ .

(٣) سورة الأنعام / الآية ٣٨ .

(٤) سورة البقرة / الآية ٢١٣ .

(٥) سورة هود / الآية ١١٨ .

(٦) سورة آل عمران / الآية ١٠٤ .

(٧) سورة الزخرف / الآية ٢٢ .

(٨) سورة يوسف / الآية ٤٥ .

(٩) سورة النحل / الآية ١٢٠ .

(١٠) سورة آل عمران / الآية ١١٣ .

(١١) المفردات للراغب مادة (أم) صـ٢٣ .

وفي لسان العرب أن الأمَّ بالفتح القصد أمه يؤمه أماً إذا قصده، والإمة بالكسر الحالة، والإمة بالكسر وبالضم الشرعة والدين، والتنزيل: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾[١].

والأمة بالضم وبالكسر الدين قال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾[٢] أي كانوا على دين واحد.

والأمة الطريقة والدين، يقال فلان لا أمة له أي دين له ولا نحلة، وقوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾[٣] يريد أهل أمة أي خير أهل دين.

والإمة النعمة، والهيئة، والحال والشأن، وقال ابن الأعرابي: الإمة غضارة العيش والنعمة، والإمة بالكسر العيش الرخي، يقال هو في إمة من العيش.

والأمة الرجل الذي لا نظير له ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ﴾[٤].

والأمة الحين قال الفراء في قوله عز وجل: ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾[٥] قال: بعد حين من الدهر، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾[٦].

والأمة الجماعة وهو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع[٧].

وفي القاموس المحيط أن لفظ الأمة يشمل كل ما ذكر من المعاني سابقا بل وغيرها.

---

(١) سورة الزخرف / الآية ٢٢ .

(٢) سورة البقرة / الآية ٢١٣ .

(٣) سورة آل عمران / الآية ١١٠ .

(٤) سورة النحل / الآية ١٢٠ .

(٥) سورة يوسف / الآية ٤٥ .

(٦) سورة هود / الآية ٨ .

(٧) لسان العرب لابن منظور مادة (أم) ١/٢١٥ ، وانظر معجم الألفاظ والأعلام القرآنية للدكتور محمد إسماعيل إبراهيم مادة (أمم) صـ٤٦ ، ٤٧ .

قال الفيروزابادي[١]: الإمة بالكسر الحالة والشرعة والدين، ويضم، والنعمة والهيئة والشأن وغضارة العيش والسنة والطريقة والإمامة والائتمام بالإمام، وبالضم الرجل الجامع للخير، وجماعة أرسل إليهم رسول، والجيل من كل حي والجنس، ومن هو على الحق مخالف لسائر الأديان، والجين، والقامة والوجه والطاعة والعالم ومن الوجه والطريق معظمه ومن الرجل قومه[٢]. وجاء في المعجم الوجيز: الأمة جماعة الناس الذين يكونون وحدة سياسية وتجمع بينهم وحدة الوطن واللغة والتراث والمشاعر[٣]. والذي يبدو لي من هذه النقول عن أئمة اللغة في معنى هذه الكلمة، أعني كلمة (الأمة) أنها أصل في معنى الجماعة، وهي وإن كانت قد أتت بمعان أخرى كالدين أو الزمان والحين، إلا أنها لم تخل حتى وهي آتية بتلك المعاني عن معنى الجماعة.

قال العلامة ابن قتيبة[٤]: أصل الأمة الصنف من الناس والجماعة، فمعنى قوله: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾[٥] أي صنفاً واحداً في الضلال، وكذلك ﴿ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾[٦] أي أصناف كل صنف من الدواب والطير مثل بني آدم في المعرفة بالله جلت قدرته وطلب الغذاء وتوقي المهالك.

ثم تصير الإمة الحين كقوله جل ثناؤه: ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾[٧] وكقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾[٨] أي سنين

---

(١) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن أبي إدريس فضل الله ابن الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي قاضي القضاة ببلاد اليمن مجد الدين بن أبي يوسف الفيروزابادي الشافعي اللغوي سمع وقرأ الكتب الكثيرة منها صحيح البخاري قرأه على ناصر الدين محمد بن أبي القاسم بالأزهر وكان عارفاً باللغة وله مصنفات كثيرة منها القاموس مات سنة سبع عشرة وثمانمائة... ذيل التقييد لمحمد بن أحمد الفاسي ١/٢٧٦ .

(٢) القاموس المحيط مادة (أمة) ٤/٧٥ .

(٣) المعجم الوجيز مادة (أم) صـ٢٥ ، وانظر كذلك مختار الصحاح مادة (أمم) صـ٢٥-٢٦ والمصباح المنير مادة (أم) صـ٢٣ .

(٤) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الكاتب الدينوري وقيل المروزي سكن بغداد وحدث بها عن أبي إسحاق بن راهوية وأبي حاتم السجستاني روى عنه ابنه أحمد وعبد الله بن جعفر وكان ثقة فاضلاً وهو صاحب التصانيف المعروفة منها: غريب القرآن وغريب الحديث ومشكل القرآن ومشكل الحديث وتوفي في ذي القعدة سنة سبعين ومائتين. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٠/ ١٧٠ .

(٥) سورة البقرة / الآية ٢١٣ .

(٦) سورة الأنعام / الآية ٣٨ .

(٧) سورة يوسف / الآية ٤٥ .

(٨) سورة هود / الآية ٨ .

معدودة، كأن الأمة من الناس القرن ينقرضون في حين فتقام الأمة مقام الحين.

ثم تصير الأمة الإمام والرباني كقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾[1] أي إماما يقتدي به الناس لأنه ومن اتبعه أمة فسمي أمة لأنه سبب الاجتماع، وقد يجوز أن يكون سمي أمة لأنه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله في أمة، ومن هذا يقال: فلان أمة وحده، أي هو يقوم مقام أمة.

وقد تكون أمة لجماعة العلماء وكقوله: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾[2] أي معلمون.

والأمة الدين قال تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾[3] أي على دين، والأصل أن يقال للقوم يجتمعون على دين واحد أمة، فتقام الأمة مقام الدين، ولهذا قيل للمسلمين أنه أمة محمد ﷺ لأنهم على أمر واحد فقال: ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾[4] أي مجتمعة على دين واحد وشريعة واحدة قال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾[5] أي مجتمعة على الإسلام[6].

قال الإمام القرطبي[7] في تفسيره: والأمة اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه:

١. فالأمة تكون الجماعة كقوله تعالى: ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾[8].

---

(١) سورة النحل / الآية ١٢٠ .

(٢) سورة آل عمران / الآية ١٠٤ .

(٣) سورة الزخرف / الآية ٢٢ .

(٤) سورة المؤمنون / الآية ٥٢ .

(٥) سورة الشورى / الآية ٨ .

(٦) مشكل القرآن لابن قتيبة صـ٧٤، ٧٥ .

(٧) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرج، صاحب كتاب الجامع لأحكام القرآن وهو من أجل التفاسير وأنفعها، وله قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة، وغير ذلك توفي سنة إحدى وسبعين وستمائة. انظر طبقات المفسرين للداوودي ٢/٩٥ .

(٨) سورة القصص / الآية ٢٣ .

(٩) سورة النحل / الآية ١٢٠ .

٢. والأمة أيضاً أتباع الأنبياء عليهم السلام.

٣. والأمة الرجل الجامع للخير الذي يقتدى به كقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾[9].

٤. والأمة الدين والملة كقوله: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾[1].

٥. والأمة الحين والزمان كقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾[3].

٦. والأمة القامة، وهو طول الإنسان وارتفاعه، يقال: من ذلك فلان حسن الأمة أي القامة.

٧. والأمة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يشركه فيه أحد.

٨. والأمة الأم يقال: هذه أمة زيد، يعني أم زيد[4].

---

(١) سورة الزخرف / الآية ٢٢ .

(٢) سورة هود / الآية ٨ . سورة يوسف / الآية ٤٥ .

(٣) سورة يوسف / الآية ٤٥ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٩/١٠ .

إطلاقات الأمة في القرآن الكريم

ورد لفظ (الأمة) في القرآن الكريم مفردا في خمسين موضعاً من خلال سبع وأربعين آية كريمة بدءًا من سورة البقرة حتى آخر سورة ذكر فيها هذا اللفظ وهي سورة الجاثية.

ولم يكن معنى هذا اللفظ واحداً في كل مواضعه بل جاء بمعان عدة منها:

أولاً: الجماعة من الناس.

وذلك في مواضع كثيرة منها قوله سبحانه على لسان نبييه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[٢] فالأمة هنا بمعنى الجماعة الكثيرة من الناس الذين يدينون بالإسلام لله رب العالمين، قال الإمام محمد الطاهر ابن عاشور[٣]: والأمة اسم مشترك يطلق على معان كثيرة، والمراد هنا الجماعة العظيمة التي يجمعها جامع له بال من نسب أو دين أو زمان، ويقال أمة محمد ﷺ مثلاً للمسلمين لأنهم اجتمعوا على الإيمان بنبوة محمد ﷺ وهي بزنة فعله، وهذه الزنة تدل على المفعول مثل لقطة وضحكة وقدوة، فالأمة بمعنى مأمومة اشتقت من الأم بفتح الهمزة وهو القصد لأن الأمة تقصدها الفرق العديدة التي تجمعها جامعة الأمة كلها مثل الأمة العربية لأنها ترجع إليها قبائل العرب والأمة الإسلامية لأنها ترجع إليها المذاهب الإسلامية[٣].

ونفس هذا المعنى كان قد ذكره أبو حيان[٤] مختصراً إذ قال: والمراد بالأمة هنا الجماعة أو الجيل والمعنى واجعل ناسا من ذريتنا أمة مسلمة لك[٥].

كذلك من الآيات التي ورد فيها لفظ الأمة بمعنى الجماعة من الناس قوله سبحانه وتعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٦].

---

(١) سورة البقرة / الآية ١٢٨ .

(٢) هو محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد ابن عاشور نقيب أشراف تونس وكبير علمائها ولي قضاءها ثم الفتيا فنقابة الأشراف وتوفي بتونس سنة ١٢٨٤هـ ومن مؤلفاته التحرير والتنوير في تفسير القرآن وحاشية على القطر في النحو.. انظر الأعلام للزركلي ١٧٣/٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٧٢١/١، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢٧/٢ .

(٤) هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي أثير الدين أبو حيان أديب نحوي لغوي مفسر محدث مقرئ مؤرخ من تصانيفه البحر المحيط في تفسير القرآن الكريم (٦٥٤-٧٤٥هـ / ١٢٥٦- ١٣٤٤م) معجم المؤلفين ١٣٠/١٢ .

(٥) البحر المحيط ٥٥٩/١ .

(٦) سورة البقرة / الآية ١٣٤، وكذلك ١٤١ .

قال العلامة الآلوسي[١] رحمه الله تعالى عند تفسيره لهذه الآية: والإشارة إلى إبراهيم عليه السلام وأولاده، والأمة أتت بمعان والمراد بها هنا الجماعة من أم بمعنى قصد، وسميت كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان بذلك لأنهم يؤم بعضهم بعضا ويقصده، والخلو المضي وأصله الانفراد[٢].

وكذلك من الآيات التي ورد فيها لفظ الأمة بمعنى الجماعة قوله سبحانه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[٣] أي جماعة يقومون بواجب الدعوة والقيام بأمر هذا الدين والتناصح على الخير والتواصي على الحق والصبر، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[٤] قال صاحب التحرير والتنوير: والخطاب في قوله (كنتم) إما لأصحاب الرسول ﷺ ونقل ذلك عن عمر بن الخطاب وابن عباس ﷺ قال عمر: هذه لأولنا ولا تكون لآخرنا، وإضافة خير إلى أمة من إضافة الصفة إلى الموصوف أي كنتم أمة خير أمة أخرجت للناس، فالمراد بالأمة الجماعة وأهل العصر النبوي مثل القرن وهو إطلاق مشهور، ولا شك أن الصحابة كانوا أفضل القرون التي ظهرت في العالم لأن رسولهم أفضل الرسل ولأن الهدى الذي كانوا عليه لا يماثله هدى أصحاب الرسل الذين مضوا، فإن أخذت الأمة باعتبار أن الرسول فيها فالصحابة أفضل أمة من الأمم مع رسولها قال النبي ﷺ: "خير الناس قرني"[٥] والفضل ثابت للمجموع على المجموع، وإن أخذت الأمة من عدا الرسول ﷺ فكذلك الصحابة أفضل الأمم التي مضت بدون رسلها، وهذا تفضيل للهدي الذي اهتدوا به وهو هدي رسولهم محمد ﷺ وشريعته.

---

(١) هو محمود بن عبد الله الحسيني شهاب الدين أبو الثناء مفسر محدث فقيه أديب لغوي نحوي مشارك في بعض العلوم ولد ببغداد ١٢١٧هـ وتوفي بها في ١٢٧٠هـ من تصانيفه روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني.
معجم المؤلفين ١٢/ ١٧٥ .

(٢) روح المعاني للآلوسي ٣٩١/١ .

(٣) سورة آل عمران / الآية ١٠٤ .

(٤) سورة آل عمران / الآية ١١٠ .

(٥) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الشهادات باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد ٩٣٨/٢، والإمام مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ٤/ ١٩٦٢ .

وإما أن يكون الخطاب بضمير (كنتم) للمسلمين كلهم في كل جيل ظهروا فيه، ومعنى تفضيلهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كونه من فروض الكفايات لا تقوم به جميع أفراد الأمة أنه لا يخلو مسلم من القيام بما يستطيع القيام به من هذا الأمر على حسب مبلغ العلم ومنتهى القدرة، أو لأن وجود طوائف القائمين بهذا الأمر في مجموع الأمة أوجب فضيلة لجميع الأمة لكون هذه الطوائف منها كما كانت القبيلة تفتخر بمحامد طوائفها، وفي هذه ضمان من الله تعالى بأن ذلك لا ينقطع من المسلمين إن شاء الله. والمعنى وجدتم على حالة الأخيرية على جميع الأمم أي حصلت لكم هذه الأخيرية بحصول أسبابها ووسائلها لأنهم اتصفوا بالإيمان والدعوة للإسلام وإقامته على وجهه والذب عنه النقصان والإضاعة لتحقق أنهم لما جعل ذلك من واجبهم وقد قام كل بما استطاع فقد تحقق منهم القيام به أو قد ظهر منهم العزم على امتثاله كلما سنح سانح يقتضيه[1]. فإن قيل: فما معنى قوله تعالى في هذه الآية (كنتم) فالجواب من وجوه:

الأول: إذا كانت (كان) تامة فالمعنى وجدتم خير أمة كأنه قال: أنتم خير أمة في الوجود الآن، لأن جميع الأمم غلب عليها الفساد فلا يعرف فيها المعروف ولا ينكر فيها المنكر ، وليست على الإيمان الصحيح الذي يزع أهله عن الشر ويصرفهم إلى الخير وأنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله إيمانا صحيحا يظهر أثره في العمل.

الثاني: أنها ناقصة والمعنى حينئذ: كنتم في علم الله، أو كنتم في الأمم السابقة كما في كتبها المبشرة بكم خير أمة، وقيل: إن هذا القول يقال لمن ابيضت وجوههم والمعنى كنتم فيما سبق من أيام حياتكم خير أمة شأنكم كذا وكذا، وبذلك كان لكم هذا الجزاء الحسن.

الثالث: أن (كان) هنا بمعنى صار أي صرتم خير أمة، وهذا أضعف الأقوال[2]. وكذلك من الآيات التي ورد فيها لفظ الأمة بمعنى الجماعة قوله سبحانه في سورة آل عمران: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾[3] وذلك في أعقاب الحديث عن جرائم أهل الكتاب وعصيانهم وقتلهم الأنبياء، فأشار القرآن إلى أن من أهل الكتاب جماعة عرفوا الحق واهتدوا به كعبد الله بن سلام[4] وغيره، فمعنى أمة في هذه الآية جماعة.

---

(١) التحرير والتنوير ٤/ ٤٨- ٤٩ .

(٢) تفسير المنار ٤/٤٧ .

(٣) سورة آل عمران / الآية ١١٣ .

(٤) هو عبد الله بن سلام الإمام الحبر المشهود له بالجنة أبو الحارث الإسرائيلي حليف الأنصار من خواص أصحاب النبي ﷺ يكنى أبا يوسف روى عنه أبو هريرة وغيره وشهد مع عمر فتح بيت المقدس مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين للهجرة .. سير أعلام النبلاء ٢/٤١٣ ، وتهذيب التهذيب ٥/٢١٩ .

ومن الآيات كذلك التي ورد فيها لفظ الأمة بمعنى الجماعة قوله سبحانه وتعالى في الحديث عن أهل الكتاب في سورة المائدة: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[1] فمعنى الأمة هنا الجماعة القليلة منهم للمقابلة لها بقوله: (وكثير منهم)[2].

قال الفخر الرازي[3] عند تفسيره لهذه الآية: والاقتصاد في اللغة الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير، ثم في هذه الأمة المقتصدة قولان: أحدهما أن المراد منها الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام من اليهود والنجاشي من النصارى فهم على القصد من دينهم، وعلى المنهج المستقيم منه ولم يميلوا إلى طرفي الإفراط والتفريط، والثاني: أن المراد منها الكفار من أهل الكتاب الذين يكونون عدولا في دينهم ولا يكون فيهم عناد شديد ولا غلظة كاملة كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾[4].

كذلك من الآيات التي ورد فيها لفظ الأمة بمعنى الجماعة آية سورة الأعراف التي تتحدث عن دخول جماعات الضلال النار جماعة تلو جماعة قال سبحانه: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[5] أي كلما دخلت جماعة النار لعنت من

---

(١) سورة المائدة / الآية ٦٦ .

(٢) انظر البحر المحيط ٣/٥٣٨ .

(٣) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي التيمي البكري الطبرستاني الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي وبابن خطيب الري مفسر متكلم فقيه أصولي حكيم أديب شاعر طبيب من تصانيفه مفاتيح الغيب في تفسير القرآن (٥٤٣- ٦٠٦هـ/ ١١٤٩- ١٢١٠م) معجم المؤلفين ١١/٧٩ .

(٤) هو أصحمة بن أبجر ملك الحبشة واسمه بالعربية عطية، والنجاشي لقب له أسلم على عهد النبي ﷺ ولم يهاجر إليه وأحسن إلى المسلمين الذين هاجروا للحبشة وأخرج أصحاب الصحيح قصة صلاة النبي ﷺ عليه صلاة الغائب ووصفه له بالصلاح من عدة طرق.. انظر الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٢٠٥ وما بعدها .

(٥) سورة آل عمران / الآية ٧٥ وانظر مفاتيح الغيب ١٢/٥٠ .

(٦) سورة الأعراف / الآية ٣٨ .

سبقتها حتى إذا تلاحقوا فيها جميعاً كانت بينهم هذه المحاورة التي ذكرتها الآية.

وكذلك من الآيات التي جاء فيها لفظ الأمة بمعنى الجماعة قوله سبحانه في سورة الأعراف: ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾[1] ففي هذه الآية يذكر ربنا سبحانه أن من قوم موسى من اتبع الحق وهدي إليه وبين أنهم جماعة لأن لفظ الأمة ينبئ عن الكثرة واختلفوا في هذه الأمة متى حصلت وفي أي زمان كانت؟ فقيل هم اليهود الذين كانوا في زمان الرسول ﷺ وأسلموا مثل عبد الله ابن سلام، والاعتراض عليه بأنهم كانوا قليلين في العدد ولفظ الأمة يقتضي الكثرة يمكن الجواب عنه بأنه لما كانوا مختلفين في الدين جاز إطلاق لفظ الأمة عليهم كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾[2] وقيل إنهم قوم مشوا على الدين الحق الذي جاء به موسى ودعوا الناس إليه وصانوه عن التحريف والتبديل في زمن تفرق بني إسرائيل وإحداثهم البدع ويجوز أن يكونوا أقاموا على ذلك إلى جاء المسيح فدخلوا دينه، ويجوز أن يكونوا هلكوا قبل ذلك[3] وفي الآية أقوال أخرى غير ما ذكر.

ومن الآيات كذلك التي ورد فيها لفظ الأمة بمعنى الجماعة قوله سبحانه في نفس سورة الأعراف: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[4] أي جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم حتى أيسوا من قبولهم لآخرين كانوا لا يقلعون عن وعظهم[5].

ومنها قوله سبحانه: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾[6] أي أنه لا يخلو زمان البتة عمن يقوم بالحق ويعمل به ويهدى إليه وأنهم لا يجتمعون في شيء من الأزمنة على الباطل، وهذه الآية- كما يقول الفخر الرازي -عامة في كل الأزمان[7].

(١) سورة الأعراف / الآية ١٥٩ .
(٢) سورة النحل / الآية ١٢٠ .
(٣) مفاتيح الغيب ٣٤/١٥ .
(٤) سورة الأعراف / الآية ١٦٤ .
(٥) الكشاف ١٢٦/٢ .
(٦) سورة الأعراف / الآية ١٨١ .
(٧) مفاتيح الغيب ٧٧/١٥ .

قال صاحب الظلال عند حديثه عن هذه الآية: وما كانت البشرية لتستحق التكريم لو لم تكن فيها دائما تلك الجماعة التي يسميها الله أمة بالمصطلح الإسلامي للأمة، وهي الجماعة التي تدين بعقيدة واحدة وتتجمع على أصرتها وتدين لقيادة واحدة قائمة على تلك العقيدة، فهذه الأمة الثابتة على الحق العاملة به في كل حين هي الحارسة لأمانة الله في الأرض الشاهدة بعهده على الناس التي تقوم بها حجة الله على الضالين المتنكرين لعهده في كل جيل[1].

كذلك من الآيات التي ورد فيها لفظ الأمة بمعنى الجماعة قوله سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾[2] فمعنى أمة في هذه الآية أنها الجماعة من الناس.

ثانياً: إطلاق الأمة بمعنى الدين والملة.

ورد هذا الإطلاق كثيراً في آيات القرآن الكريم فقد أخبر القرآن أن الناس كانوا جميعا أمة واحدة أي على دين واحد قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[3] وكذلك قوله في سورة يونس: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[4].

الآية الأولى تخبر أن الناس جميعاً كانوا أمة واحدة لكنها لم تفصح هل كانوا أمة واحدة في الإيمان أم في الكفر؟ في الهدى أم في الضلال؟ من هنا رأى جمهور المفسرين أن الناس كانوا أمة واحدة في الإيمان أو التوحيد، واستدلوا على ذلك بقراءة عبد

(١) ظلال القرآن ١٤٠٢/٣ .
(٢) سورة القصص / الآية ٢٣ .
(٣) سورة البقرة / الآية ٢١٣ .
(٤) سورة يونس / الآية ١٩ .

الله بن مسعود ﷺ (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) وقال البعض بل كانوا أمة واحدة على الكفر لذا احتاجوا إلى بعثة النبيين للتبشير والإنذار.

قال الإمام ابن كثير[١] في تفسيره: "قال ابن جرير[٢] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وهي كذلك في قراءة عبد الله (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) وهكذا قال مجاهد[٣] كما قال ابن عباس أولا، وقال العوفي عن ابن عباس: كان الناس أمة واحدة يعني كفارا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

قال ابن كثير: والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحا عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ولهذا قال الله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض ﴿ **فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ** ﴾"[٤].

---

(١) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع البصري ثم الدمشقي الشافعي المعروف بابن كثير عماد الدين أبي الفداء محدث مفسر فقيه، من تصانيفه تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية في التاريخ (٧٠٠- ٧٧٤هـ / ١٣٠١- ١٣٧٣م) معجم المؤلفين ٣/ ٣٨٣، ٣٨٤ .

(٢) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، أبو جعفر : مفسر مقرئ محدث مؤرخ ، وفقيه أصولي، كان مجتهداً في أحكام الدين لا يقلد أحداً، ولد في آمل طبرستان ، واستوطن بغداد وتوفي بها . وعرض عليه القضاء فامتنع ،والمظالم فأبى . له " أخبار الرسل والملوك " يعرف بتاريخ الطبري ، و " جامع البيان في تفسير القرآن " وهو من ثقات المؤرخين ، قال ابن الأثير : أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ (٢٢٤ ــ ٢١٠هـ / ٨٣٩ ــ ٩٢٣ م) .أهـ الأعلام للزركلي ٦/٦٩ ، ومعجم المؤلفين ٩/١٤٧ .

(٣) هو مجاهد بن جبر الإمام شيخ القراء والمفسرين أبو الحجاج المكي الأسود روى عن ابن عباس فأكثر وأطاب، وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقه، قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، مات وهو ساجد سنة ثنتين ومائة وقيل ثلاثة ومائة، وقيل غير ذلك. سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤٩: ٤٥٥ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٥٩، وانظر كلام الإمام الطبري في جامع البيان ٢/ ١٩٥ .

وما رجحه الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى رجحه غيره كالإمام الرازي الذي ساق أدلة لرجحان الرأي الأول في معنى هذه الآية الكريمة حيث قال: دلت الآية على أن الناس كانوا أمة واحدة ولكنها ما دلت على أنهم كانوا أمة واحدة في الحق أم في الباطل، واختلف المفسرون فيه على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنهم كانوا على دين واحد وهو الإيمان والحق، وهذا قول أكثر المحققين ويدل عليه وجوه:

الأول: ما ذكره القفال فقال: الدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية ﴿ **فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾ فهذا يدل على أن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا حين الاختلاف ويتأكد هذا بقوله: ﴿ **وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا** ﴾ ويتأكد أيضا بما نقل عن ابن مسعود أنه قرأ (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا) إذا عرفت هذا فنقول: الفاء في قوله ﴿ **فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ** ﴾ تقتضي أن يكون بعثهم بعد الاختلاف ولو كانوا قبل ذلك أمة واحدة في الكفر لكانت بعثة الرسل قبل هذا الاختلاف أولى، لأنهم لما بعثوا عندما كان بعضهم محقا وبعضهم مبطلا فلأن يبعثوا حينما كانوا كلهم مبطلين مصرين على الكفر كان أولى.. وهذا الوجه الذي ذكره القفال رحمه الله حسن في هذا الموضوع.

وثانيها: أنه تعالى حكم بأنه كان الناس أمة واحدة ثم أدرجنا فيه، فاختلفوا بحسب دلالة الدليل عليه، وبحسب قراءة ابن مسعود ثم قال: ﴿ **وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾ والظاهر أن المراد من هذا الاختلاف هو الاختلاف الحاصل بعد ذلك الاتفاق المشار إليه بقوله: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾ ثم حكم على هذا الاختلاف بأنه إنما حصل بسبب البغي، وهذا الوصف لا يليق إلا بالمذاهب الباطلة، فدلت الآية على أن المذاهب الباطلة إنما حصلت بسبب البغي وهذا يدل على أن الاتفاق الذي كان حاصلا قبل حصول هذا الاختلاف إنما كان في الحق لا في الباطل، فثبت أن الناس كانوا أمة واحدة في الدين الحق لا في الدين الباطل.

وثالثها: أن آدم عليه السلام لما بعثه الله رسولاً لأولاده فالكل كانوا مسلمين مطيعين لله تعالى، ولم يحدث فيما بينهم اختلاف في الدين إلى أن قتل قابيل هابيل بسبب الحسد والبغي، وهذا المعنى ثابت بالنقل المتواتر، والآية منطبقة عليه لأن الناس

هم آدم وأولاده من الذكور والإناث كانوا أمة واحدة على الحق ثم اختلفوا بسبب البغي والحسد كما حكى الله عن ابني آدم، فلم يكن ذلك القتل والكفر بالله إلا بسبب البغي والحسد، وهذا المعنى ثابت بالنقل المتواتر والآية منطبقة عليه.

ورابعها: أنه لما غرقت الأرض بالطوفان لم يبق إلا أهل السفينة وكلهم كانوا على الحق والدين الصحيح ثم اختلفوا بعد ذلك، وهذه القصة مما عرف ثبوتها بالدلائل القاطعة والنقل المتواتر، إلا أنهم اختلفوا بعد ذلك فثبت أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق ثم اختلفوا بعد ذلك ولم يثبت البتة بشيء من الدلائل أنهم كانوا مطبقين على الباطل والكفر، وإذا كان كذلك وجب حمل اللفظ على ما ثبت بالدليل وأن لا يحمل على ما لم يثبت بشيء من الدلائل[1].

ثم ذكر ثلاثة أوجه أخرى لنصرة هذا الرأي، وذكر بعدها القولين الآخرين في معنى الآية وهما: أن الناس كانوا أمة واحدة في الضلال، أو كانوا أمة واحدة فيما هو من مقتضى أصل الفطرة من الأخذ بما يرشد إليه العقل في الاعتقاد والعمل.

ومما يذكر في هذا المقام أيضاً أن الإمام الفخر الرازي ذكر وجوهاً أخرى لنصرة ما اختاره في تفسيره لآية سورة البقرة عند حديثه عن آية سورة يونس ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ حيث قال: كانوا أمة واحدة إما في الإسلام وإما في الكفر ولا يجوز أن يقال أنهم كانوا أمة واحدة في الكفر فبقي أنهم كانوا أمة واحدة في الإسلام، وإنما قلنا إنه لا يجوز أن يقال إنهم كانوا أمة واحدة في الكفر لوجوه:

(١) مفاتيح الغيب ٦/ ١١:١٣ .

الأول: قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[1] وشهيد الله لا بد وأن يكون عدلاً مؤمناً فثبت أنه ما خلت أمة من الأمم إلا وفيهم مؤمن.

الثاني: أن الأحاديث وردت بأن الأرض لا تخلوا عمن يعبد الله تعالى وعن أقوام بهم يمطر أهل الأرض وبهم يرزقون.

الثالث: أنه لما كانت الحكمة الأصيلة في الخلق هي العبودية فيبعد خلو أهل الأرض بالكلية عن هذا المقصود، روي عن النبي ﷺ أنه قال: "**إن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقية من أهل الكتاب**"[2] وهذا يدل على قوم تمسكوا بالإيمان قبل مجيء الرسول عليه الصلاة والسلام فكيف يقال: إنهم كانوا أمة واحدة في الكفر، وإذا ثبت أن الناس كانوا أمة واحدة في الإيمان[3].

وأياما كان المراد فإن فعل (كان) في آية سورة البقرة مستعمل في أصل معناه وهو اتصاف اسمها المخبر عنه بمضمون خبرها في الزمن الماضي وأن ذلك قد انقطع إذ صار الناس منقسمين إلى فئتين فئة على الحق وفئة على الباطل.

فإذا كان المراد الوحدة في الحق فقد حصل ذلك في زمن كان الغالب فيه على الناس الرشد والاستقامة والصلاح والإصلاح فلم يكونوا بحاجة إلى بعثة الرسل إليهم إلى أن اختلفت أحوالهم فظهر فيهم الفساد، والذي نجزم به أن هذا كان في زمن من أزمان وجود الناس على الأرض يعلمه

(١) سورة النساء / الآية ٤١ .

(٢) صحيح الإمام مسلم كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٤/٢١٩٧ وصحيح ابن حبان ك: الرقائق ب: ذكر الإخبار عن الخصال التي يجب على المرء تفقدها من نفسه حذر إيجاب النار له بارتكاب بعضها ٢/٤٢٢٠

(٣) مفاتيح الغيب ١٧/٦٤ .

الله تعالى لقوله: ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾[١] وإن كان المراد الوحدة على الباطل فقد حصل ذلك في زمن نوح في أول ما قص الله علينا مع ما ورد من أن نوحا أول الرسل إلى أهل الأرض. فيظهر أن الضلال حدث في أهل الأرض وعمهم فبعث الله نوحا إليهم ثم أهلك الكافرين منهم بالطوفان ونجى نوحا ونفرا معه فأصبح جميع الناس صالحين ثم اختلفوا بعد ذلك فبعث الله النبيين[٢].

وللعلامة محمد الطاهر بن عاشور كلام طيب عند تفسيره لآية سورة يونس حيث قال: والمراد هنا أمة واحدة في الدين والسياق يدل على أن المراد أنها أمة واحدة في الدين الحق وهو التوحيد لأن الحق هو الذي يمكن اتفاق البشر عليه لأنه ناشئ عن سلامة الاعتقاد من الضلال والتحريف، والإنسان لما أنشئ أنشئ على فطرة كاملة بعيدة عن التكلف وإنما يتصور ذلك في معرفة الله تعالى دون الأعمال لأنها قد تختلف باختلاف الحاجات، فإذا جاز أن يحدث في البشر الضلال والخطأ فلا يكون الضلال عاما على عقولهم، فتعين أن الناس في معرفة الله تعالى كانوا أمة واحدة متفقين على التوحيد لأن الله لما فطر الإنسان فطره على عقل سليم موافق للواقع، ووضع في عقله الشعور بخالق وبأنه واحد وضعا جبليا كما وضع الإلهامات في أصناف الحيوان، وتأيد ذلك بالوحي لأبي البشر آدم عليه السلام.

ثم إن البشر أدخلوا على عقولهم الاختلاف البعيد عن الحق بسبب الاختلاق الباطل والتخيل والأوهام بالأقيسة الفاسدة فتعين أن المراد في هذه الآية بكون الناس أمة واحدة الوحدة في الحق وأن المقصود مدح تلك الحالة لأن المقصود من هذه الآية بيان فساد الشرك وإثبات خطأ منتحليه بأن سلفهم الأول لم يكن مثلهم في فساد العقول[٣].

كذلك ورد لفظ الأمة بمعنى الدين والملة في معرض حديث القرآن الكريم عن مشيئة خلق الله تعالى للناس مختلفين ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة في الإيمان والهدى قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾[٤] وقوله سبحانه:

(١) سورة الفرقان / الآية ٣٨ .
(٢) التحرير والتنوير ٢/٣٠٠: ٣٠٣ .
(٣) المرجع السابق ١١/١٢٨-١٢٩ .
(٤) سورة المائدة / الآية ٤٨ .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[١] وقوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[٣].

يقول الإمام الرازي في الآية الأولى: أي جماعة متفقة على شريعة واحدة أو ذوي أمة واحدة أي دين واحد لا اختلاف فيه قال الأصحاب: هذا يدل على أن الكل بمشيئة الله تعالى[٤].

وعن الآية الثانية يقول الإمام الآلوسي رحمه الله: "قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي مجتمعين على الدين الحق بحيث لا يقع من أحد منهم كفر لكنه لم يشأ سبحانه ذلك فلم يكونوا مجتمعين على الدين الحق، ونظير ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[٥]"[٦].

وعن الآية الثالثة يقول أبو حيان: "قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ وهذه المشيئة مشيئة اختيار على مذهب أهل السنة ابتلي الناس بالأمر والنهي ليذهب كل إلى ما يسر له، وذلك لحق الملك ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾[٧] ولو شاء لكانوا كلهم على طريقة واحدة إما هدى وإما ضلالة ولكنه فرق فناس للسعادة وناس للشقاوة فخلق الهدى والضلال وتوعد بالسؤال عن العمل وهو سؤال توبيخ لا سؤال تفهم وسؤال التفهم هو المنفي في آيات.

ويجوز أن يكون المعنى أنه لو شاء خلقكم في الجنة ولكنه لم يفعل ذلك ليثيب المطيعين منكم ويعذب العصاة"[٨].

(١) سورة هود / الآية ١١٨-١١٩ .
(٢) سورة النحل / الآية ٩٣ .
(٣) سورة الشورى / الآية ٨ .
(٤) مفاتيح الغيب ١٢/١٥ .
(٥) سورة السجدة / الآية ١٣ .
(٦) روح المعاني ١٢/ ١٦٤ .
(٧) سورة الأنبياء / الآية ٢٣ .
(٨) البحر المحيط ٥/ ٥١٥ .

وعن الآية الرابعة يقول الطاهر بن عاشور: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي لو شاء الله لقدر أسباب اتحادهم على عقيدة واحدة من الهدى فكانوا سواءً في المصير والمراد: لكانوا جميعا في الجنة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾[1].

وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[2] أي ولكنه جعلهم فريقين فريقا في الجنة وفريقا في السعير ليدخل من يشاء منهم في رحمته وهي الجنة[3].

فمن خلال ما سبق يتضح أن معنى الأمة المنفي في تلك الآيات هو الدين أو قل: هو الاجتماع على دين أو ملة واحدة ولكن تلك هي سنة الاختلاف التي جرت بأمر الله تعالى في الناس ليعذب منهم من عصى ويثيب من أطاع.

كذلك من الآيات التي ورد فيها لفظ الأمة بمعنى الدين والملة قوله سبحانه في سورة الأنبياء: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾[4]، وقوله في سورة المؤمنون مخاطبا أنبيائه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۞ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾[5] أما الآية الأولى - آية الأنبياء - فقد جاءت بعد حديث القرآن الكريم عن نفر كثير من الأنبياء الكثيرين ثم عقبت بذلك التعقيب (إن هذه أمتكم أمة واحدة) لتبين أو تشير إلى أن كل هؤلاء الأنبياء كانوا دعاة إلى عقيدة واحدة ودين واحد وهو الإسلام وهو ما أنتم عليه (أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون).

قال العلامة الآلوسي: الخطاب للناس قاطبة والإشارة إلى ملة التوحيد والإسلام وذلك من باب: ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾[6] وهذا أخوك، تصور المشار إليه في الذهن وأشير إليه، وفيه أن متميز أكمل التمييز ولهذا لم يبين بالوصف، وأريد بالجملة الخبرية الأمر بالمحافظة على تلك الملة ومراعاة حقوقها والمعنى

(١) سورة السجدة / الآية ١٣ .
(٢) سورة يونس / الآية ٩٩ .
(٣) التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٨- ٣٩ .
(٤) سورة الأنبياء / الآية ٩٢ .
(٥) سورة المؤمنون / الآيتان ٥١، ٥٢ .
(٦) سورة الكهف / الآية ٧٨ .

أن ملة الإسلام ملتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها فافعلوا ذلك[1].

ويقول الشيخ عبد الكريم الخطيب: بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى أولئك المصطفين من رسله وأنبيائه وعباده الصالحين من نوح الذي يعد الأب الثاني للإنسانية بعد آدم، إلى إدريس الذي يقال إنه كان من ذرية نوح الأقربين، إلى إبراهيم أبي الأنبياء، إلى مريم أم آخر نبي في بني إسرائيل، بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى هؤلاء المكرمين من عباده من ذكور وإناث ومن بعيد عهده وقريبه عقب على ذلك بقوله: (إن هذه أمتكم) إشارة إلى أن هذا هو المجتمع الإنساني وتلك هي الأمة الإنسانية التي يبعث الله فيها رسله ويصطفي منها من يشاء من عباده، فهذه هي الأم التي ينتسب إليها كل إنسان، وفيها هذه الوجوه المشرقة التي عرضتها الآيات السابقة والتي ينبغي أن يقيم الناس وجوههم عليهم، وأن يقتدوا بهم فهم جميعا من طينة واحدة، وإنما يكون التفاوت بينهم بالجهد الذي يبذله الإنسان منهم لإعلاء إنسانيته ورفعها من هذا الطين.

وفي قوله تعالى: (أمة واحدة) إشارة إلى تلك الوحدة التي تجمع الناس جميعا وتجعل منهم مجتمعا واحدا وإن اختلفوا ألسنة وتباينوا ألوانا وتناءوا ديارا وأوطانا.

وقوله تعالى: (وأنا ربكم فاعبدون) أي أنه سبحانه رب جميع الناس وراعيهم فكلهم خلقه وصنعة يده وكلهم غذي نعمته وإحسانه تقلهم أرضه وتظلهم سماؤه وإذا كان هذا صنيعه بهم وشأنه فيهم فهو المستحق للعبادة والطاعة والولاء[2]. أما آية سورة المؤمنون فهي من جملة ما خوطب به الأنبياء ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۞ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ والمعنى: واعلموا أن هذه ملتكم وشريعتكم أيها الرسل - ملة واحدة - وشريعة متحدة يجمعها أصل هو أعظم ما بعث الله به أنبياءه وأنزل فيه كتبه، وهو دعاء جميع الأنبياء إلى عبادة الله وحده لا شريك له والمراد بها على هذا العقائد، إذ هي التي اتحدت في كل الشرائع، أما الأحكام الفرعية فقد اختلفت باختلاف الشرائع، أو أن المعنى: إن هذا الذي تقدم ذكره هو دينكم وملتكم فالزموه[3].

(١) روح المعاني ١٧/ ٨٩.
(٢) التفسير القرآني للقرآن ٥/ ٩٥٠-٩٥١ .
(٣) فتح البيان لصديق خان ٦/ ٢٩٠ .

قال الفخر الرازي: والمعنى أنه كما يجب اتفاقهم على أكل الحلال والأعمال الصالحة فكذلك هم متفقون على التوحيد وعلى الاتقاء من معصية الله تعالى فإن قيل: لما كانت شرائعهم مختلفة فكيف يكون دينهم واحد؟ قلنا: المراد من الدين ما لا يختلفون فيه من معرفة الله تعالى وصفاته، أما الشرائع فإن الاختلاف فيها لا يسمى اختلافا في الدين، فكما يقال في الحائض والطاهر من النساء إن دينهن واحد وإن افترق تكليفهما فكذا هنا ويدل على ذلك قوله (وأنا ربكم فاتقون) فكأنه نبه بذلك على أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه فلا مدخل للشرائع وإن اختلفت[1].

كذلك من الآيات التي ورد فيها لفظ الأمة مرادا به الدين قوله سبحانه وتعالى في سورة الزخرف: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[2] والمراد بالأمة هنا الملة الباطلة قال الإمام الآلوسي: والأمة الدين والطريقة التي تؤم أي كالرحلة للرجل العظيم الذي يقصد في المهمات يقال: فلان لا أمة له أي لا دين له ولا نحلة، وقيل: الأمة الجماعة، والمراد وجدنا آبائنا متوافقين على ذلك والجمهور على الأول وعليه المعول[3]. أي على أن المراد بالأمة هنا الدين والطريق والمعنى أن هؤلاء ليس لهم علم من عند أنفسهم ولا من كتاب جاءهم وإنما كل الذي عندهم ضلالات ورثوها عن آبائهم ثم عدوها دينا يدينون به.

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ الأمة مرادا به الملة الباطلة أو دين الكفر قوله تعالى في سورة الزخرف أيضا: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ۝ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[4].

قال الزمخشري[5]: أي ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر ويطبقوا عليه لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا عندنا للكفار سقوفا ومصاعد وأبوابا وسررا كلها من فضة وجعلنا لهم زخرفا أي زينة من كل شيء[6].

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٣/١٠٥- ١٠٦ .
(٢) سورة الزخرف / الآيتان ٢٢- ٢٣ .
(٣) روح المعاني ٢٥/ ٧٣ وانظر التحرير والتنوير ٢٥/ ١٧٨ والسراج المنير ٣/ ٥٥٨ .
(٤) سورة الزخرف الآيات ٣٣- ٣٥ .
(٥) هو محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري أبو القاسم جار الله ، مفسر محدث متكلم نحوي لغوي بياني أديب ناظم ناثر مشارك في عدة علوم ، من تصانيفه : " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " في التفسير ، (٤٦٧-٥٣٨ هـ / ١٠٧٥-١١٤٤ م) .أهـ معجم المؤلفين ١٢/١٨٦ .
(٦) الكشاف ٣/ ٤٨٧ .

والمعنى: لولا أن يعتقد كثير من الناس أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر فيصيروا أمة واحدة أي في الكفر لأجل المال لأعطيناهم، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس والحسن وقتادة ﷺ[1].

وهذه الآيات تكشف عن الطبيعة البشرية التي يستهويها حب المال وتفتنها شهوته، فالناس جميعا- إلا من عصم الله- أضعف من أن يقاوموا شهوة المال وأن يقهروا سلطانه المتمكن من نفوسهم، وفي قوله تعالى: (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) بيان لتجربة عملية يمكن أن يمتحن بها الناس، وهذه التجربة هي أن يساق المال بغير حساب لكل من يكفر بالرحمن حتى يتخذ هؤلاء الكافرون لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج أي سلالم من فضة عليها يظهرون، أي يصعدون بها على ظهور هذه البيوت، كذلك يتخذون لبيوتهم أبوابا من فضة وسررا من فضة كذلك يتكئون عليها، ويسمرون فوقها، كما يجلبون إلى هذه البيوت المتاع والزخرف حتى تفيض وتمتلئ، هذه هي التجربة المفترضة فماذا يكون الشأن لو أنها وقعت فعلا فكان لكل من يكفر بالرحمن هذا العطاء يساق إليه بغير حساب؟.

الجواب الذي تعطيه التجربة هو أن يتحول الناس إلى الكفر حتى يكون لهم هذا المال الذي يعطاه كل كافر، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) فالأمة التي سيكون الناس عليها هي أمة الكفر، والدين الذي سيدينون به هو الكفر لو فرض ووقع جواب هذا الشرط، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد لعباده الخير فعافاهم من هذا الابتلاء ودفع عنهم تلك الفتنة فجعل متاع الدنيا قسمة بينهم ينال منه الكافرون والمؤمنون على السواء كل حسب ما قدر له[2].

ثالثاً: إطلاق الأمة بمعنى الزمان أو الوقت.

من إطلاقات لفظ الأمة في القرآن الكريم ورودها بمعنى الوقت وذلك في موضعين أحدهما في سورة هود قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[3] فالأمة هنا بمعنى المدة من الزمان، قاله ابن عباس ومجاهد والجمهور ومعناه إلى حين ووقت معلوم[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ١٣٦ .
(٢) التفسير القرآني للقرآن ٧/ ١٢٨ .
(٣) سورة هود / الآية ٨ .
(٤) البحر المحيط ٥/ ٢٠٦ .

قال الإمام الرازي: فإن قيل: ما المراد بقوله (إلى أمة معدودة) فالجواب من وجهين:

الأول: أن الأصل في الأمة هم الناس والفرقة فإذا قلت جاءني أمة من الناس فالمراد طائفة مجتمعة قال تعالى: ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾(١) وقوله: ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾(٢) أي بعد انقضاء أمة وفنائها فكذا ههنا قوله: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ أي إلى حين تنقضي أمة من الناس انقرضت بعد هذا الوعيد بالقول لقالوا: ماذا يحبسه عنا وقد انقرض من الناس الذين كانوا متوعدين بهذا الوعيد؟ وتسمية الشيء باسم ما يحصل فيه كقولك: كنت عند فلان صلاة العصر أي في ذلك الحين.

الثاني: أن اشتقاق الآمة من الأم وهو القصد كأنه يعني الوقت المقصود بإيقاع هذا الموعد فيه(٣).

وأما الموضع الآخر الذي ورد فيه لفظ الأمة بمعنى الحين والوقت فهو قوله سبحانه في سورة يوسف: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾(٤) فمعنى ادكر بعد أمة: أي تذكر بعد حين ووقت، وذلك لأن الحين إنما يحصل عند اجتماع الأيام الكثيرة كما أن الأمة إنما تحصل عند اجتماع الجمع العظيم، فالحين كان أمة من الأيام الساعات، والمعنى: وادكر بعد مضي الأوقات الكثيرة من الوقت الذي أوصاه يوسف عليه السلام بذكره عند الملك(٥)

قال الزمخشري: أي تذكر الذي نجا من الفتيين من القتل يوسف وما شاهده منه بعد مدة طويلة وذلك أنه حين استفتي الملك في رؤياه وأعضل على الملأ تأويلها تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه وطلب إليه أن يذكره عند الملك.

وقرئ بعد إمة بكسر الهمزة والإمة النعمة أي بعدما أنعم الله عليه بالنجاة، وقرئ بعد أمه أي بعد نسيان يقال أمه يأمه أمها إذا نسي(٦). قال العلامة الآلوسي عن هذا الوجه الأخير: ولا يخفى بعده(٧). هذا وقد قال بعضهم(٨): إن الأمة لا تكون على معنى الحين إلا على حذف مضاف

(١) سورة القصص / الآية ٢٣ .
(٢) سورة يوسف / الآية ٤٥ .
(٣) مفاتيح الغيب ١٧/ ١٩٧ .
(٤) سورة يوسف / الآية ٤٥ .
(٥) مفاتيح الغيب ١٨/ ١٥٢ .
(٦) الكشاف ٢/ ٣٢٤ .
(٧) روح المعاني ١٢/ ٢٥٣ .
(٨) انظر فتح البيان لصديق خان ٥/ ٦ .

وإقامة المضاف إليه مقامه كأنه قال والله أعلم: وادكر بعد حين أمة أو بعد زمن أمة، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. وعلى أية حال فلم يذكر لفظ الأمة مرادا به الوقت أو الحين في القرآن الكريم في غير هذين الموضعين.

رابعا: إطلاق الأمة بمعنى الرجل الجامع للخير أو الذي لا نظير له.

وهذا لم يرد في القرآن إلا في موضع واحد في سورة النحل حين وصف الله سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام بأنه كان أمة وجده فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(١). وقد ذكر المفسرون(٢) أوجها في وصف إبراهيم عليه السلام بأنه كان أمة:

الأول: أنه كان في الفضل والفتوة والكمال بمنزلة أمة كاملة كقولهم أنت الرجل كل الرجل.

الثاني: أنه كان أمة وحده في الدين لأنه لم يكن في وقته بعثته موحد لله غيره فهو الذي أحيا الله به التوحيد وبثه في الأمم والأقطار وبنى له معلما عظيما وهو الكعبة ودعا الناس إلى حجه لإشاعة ذكره بين الأمم ولم يزل باقيا على مر العصور.

الثالث: أن يكون أمةً بمعنى مأموم أي يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى مأتم به كالرحلة والنخبة وما أشبه ذلك مما جاء على فعلة بمعنى مفعول فيكون مثل قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾(٣) أي كان إماما في الدين لأن الأئمة معلمو الخير.

الرابع: أنه عليه السلام هو السبب الذي لأجله جعلت أمته ممتازين عن سواهم بالتوحيد والدين الحق، ولما جرى مجرى السبب لحصول تلك الأمة سماه الله تعالى بالأمة إطلاقا لاسم السبب على المسبب.

ومعنى القانت القائم بأمر الله، والحنيف المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه، ونفى عنه الشرك تكذيبا لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام(٤).

(١) سورة النحل / الآيات ١٢٠: ١٢٣ .
(٢) انظر الكشاف ٢/ ٤٣٣- ٤٣٤، ومفاتيح الغيب ٢٠/ ١٣٦، والتحرير والتنوير ١٤/ ٣١٦ .
(٣) سورة البقرة / الآية ١٢٤ .
(٤) الكشاف ٢/ ٤٣٣- ٤٣٤ .

وما ذكره المفسرون في أوجه اتصاف إبراهيم عليه السلام بأنه كان أمة كلها معان مستقيمة ولا مانع من إرادة جميعها والله تعالى أعلم.

خامساً: إطلاق الأمة بمعنى القرن من الناس أو أهل العصر.

وهذا الإطلاق قليل الاستخدام في القرآن الكريم حتى يمكن أن يندرج تحت إطلاق من الإطلاقات الأخرى السابقة. ويمكن أن يمثل له بقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾(١).

قال صاحب فتح البيان: في أمة أي قرن، قد خلت أي مضت، من قبلها أي قبل الأمة (أمم) قرون، أو في جماعة من الناس كثيرة قد مضت من قبلها جماعات(٢). كذلك من الممكن أن يمثل لذلك بقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(٣).

قال الزمخشري: والأمة الجماعة الكثيرة قال تعالى: ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾(٤) ويقال لأهل العصر أمة، وفي حدود المتكلمين: الأمة هم المصدقون بالرسول ﷺ دون المبعوث إليهم وهم الذين يعتبر إجماعهم، والمراد هنا أهل العصر(٥). وكذلك قال الشيخ الخطيب الشربيني(٦) في تفسيره: الأمة الجماعة الكثيرة ويقال لكل أهل عصر أمة، والمراد ههنا أهل العصر(٧).

(١) سورة الرعد / الآية ٣٠ .

(٢) فتح البيان لصديق خان ٥/ ١٠١ .

(٣) سورة فاطر / الآية ٢٤ .

(٤) سورة القصص / الآية ٢٣ .

(٥) الكشاف ٣/ ٣٠٦ .

(٦) هو محمد بن أحمد الشربيني شمس الدين، فقيه شافعي مفسر. من أهل القاهرة له تصانيف منها: "السراج المنير" في تفسير القرآن، و "الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع" و "مغني المحتاج" في الفقه، و "تقريرات على المطول" في البلاغة . توفي سنة ٩٧٧ هـ . الأعلام للزركلي ٦/٦ .

(٧) السراج المنير ٣/٣٢٣ .

بينما يذهب صاحب التحرير التنوير إلى أن من الأمة في هذه الآية الجذم العظيم من أهل نسب ينتهي إلى جد واحد جامع لقبائل كثيرة لها مواطن متجاورة مثل أمة الفرس وأمة الروم وأمة الصين وأمة الهند وأمة اليونان وأمة إسرائيل وأمة العرب وأمة البربر فما من هؤلاء إلا وقد سبق فيها نذير، أي رسول أو نبي ينذرهم بالمهلكات وعذاب الآخرة(١).

وهذا الإطلاق كما قلت قليل في القرآن الكريم، ومن الممكن إدخاله تحت بعض الإطلاقات الأخرى للفظ الأمة كالجماعة الكثيرة أو غيرها.

سادساً: إطلاق الأمة بمعنى أتباع الأنبياء.

ويمثل له بمثل قوله سبحانه وتعالى في سورة النساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾(٢).

قال أبو حيان في البحر: هو نبيهم يشهد عليهم بما فعلوا كما قال تعالى: ﴿ وَكُنْتَ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾(٣).

قال: والأمة هنا من بعث إليهم النبي من مؤمن به وكافر لما أعلم تعالى بعدله وإيتاء فضله أتبع ذلك بأن نبه على الحالة التي يحضرونها للجزاء ويشهد عليهم فيها، والإشارة بـ (هؤلاء) إلى أمة الرسول، وقيل إلى الكفار، وقيل إلى اليهود والنصارى، وقيل إلى كفار قريش، وقيل إلى المكذبين، وشهادته بالتبليغ لأمته أو بإيمانهم أو بأعمالهم(٤).

وبعد:

فهذه أغلب إطلاقات لفظ (الأمة) في القرآن الكريم، وإنما قلت أغلب احترازاً عن أن يكون هناك معنى لهذا اللفظ في القرآن الكريم غير ما ذكرت، وعموماً فالذي أراه أن استخدام القرآن الكريم لهذا اللفظ لا يخرج عن تلك المعاني المذكورة، والله تعالى أعلم.

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٩٧ .

(٢) سورة النساء / الآية ٤١ .

(٣) سورة المائدة / الآية ١١٧ .

(٤) البحر المحيط ٣/ ٢٦٢ .

الأمة الواحدة

ورد وصف الأمة بالواحدة في آيتين الأول في سورة الأنبياء في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾[1] وقد جاءت هذه الآية بعد ذكر جمع من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام وما جرى لهم مع أقوامهم.

والآية الثانية في سورة المؤمنون في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾[2] فهي من جملة ما خاطب الله تعالى به الأنبياء السابقين، وقد جاء لفظ (أمة) بالنصب في الآيتين على الحال، والخبر قد تم عند قوله سبحانه (وإن هذه أمتكم) أي هذا الجمع من الأنبياء والمرسلين أمتكم أي جماعتكم حال أنها أمة واحدة، أي ليس جمعا تربطه الروابط البعيدة كما يقال: أمة الهند مثلا على اختلاف مللها وتفرق كلمتها، بل هي أمة تربطها رابطة قريبة هي رابطة الاهتداء بنور الله والدعوة إلى توحيده والقيام على شرعه وحمل الناس على اتباع أحكامه، فهي مجتمعة على أمر واحد لا تعدد فيه هو الحق والعدل، فهي جديرة بأن تكون أمة واحدة[3].

إن الأمة التي ننتسب إليها هي أمة المسلمين جميعاً من لدن آدم حتى محمد ﷺ فالرسل وأتباعهم على مدار التاريخ البشري يشكلون أمة واحدة هذه الأمة هي الأمة الإسلامية وهي التي ينتسب إليها المسلم ولا يجوز أن ينتسب إلى غيرها انتساب إخاء وولاء.

هذه الأمة التي تدين لله بالإسلام على مدار التاريخ مرت بمرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل محمد ﷺ.

المرحلة الثانية: المرحلة التي تبدأ ببعثة النبي ﷺ.

فقبل محمد ﷺ كانت الرسالة تظهر بشكل قومي، أي أن رسل الله كانوا يرسلون إلى أقوامهم خاصة، فكان الرسول ينادي قومه فقط، كما قص الله قصصهم علينا في القرآن الكريم من

(١) سورة الأنبياء / الآية ٩٢ .

(٢) سورة المؤمنون / الآيتان ٥١- ٥٢ .

(٣) راجع تفسير المنار ٢/ ٢٢٣ .

فقد انتقلت الدعوة من الإطار القومي إلى الإطار الإنساني فأصبح النداء (يا أيها الناس) (يا أيها الإنسان) وأصبحت الإنسانية كلها ملزمة باتباع رسول واحد هو سيدنا محمد ﷺ فلا يكون رسول بعده، ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[2] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3]. وبهذا أصبحت شعوب البشر كلها، على اختلاف أجناسها وألوانها وألسنتها أمة لرسول واحد، يفترض عليها اتباعه والاقتداء به، والتسليم لشريعته، فإن استجابت هذه الشعوب كلها كانت أمة واحدة، وإن لم تستجب هذه الشعوب كلها، فمن استجاب منها أو من أفرادها فهم الذين يشكلون الأمة الإسلامية.

ومظاهر اتفاق ووحدة هذه الأمة الإسلامية كثيرة ومتشابكة لا مثيل لها في أمة أخرى من الأمم وهذه بعضها:

(١) **وحدة العقيدة:**

فلا إله إلا الله أصل وحدة المسلمين، متى قالها الإنسان كان من هذه الأمة ومادام خارج دائرتها فليس منها، ومتى أسلم الإنسان وجهه لله وعلى سنة رسوله ﷺ فقد حقق العبودية لله وتحرر من الرق ما سواه.

(٢) **وحدة العبادة:**

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[4] ولا يتحقق الإيمان بالله شعوريا وعمليا إلا بالعبادة، ولا تقوم إنسانية الإنسان إلا بها، والعبادات التي فرضت على المسلمين جميعا واحدة فضلا عن أنها تزيد من وحدة المسلمين وترابطهم، فالمسلمون تجمعهم قبلة واحدة يتجهون إليها في صلواتهم كل يوم خمس مرات، ويجمعهم شهر واحد يصومونه كل عام وهو شهر رمضان، وتنصهر كل الأمة على اختلاف ألسنتها وألوانها في أداء فريضة الحج التي يأتون لأدائها من فج عميق، وهكذا تكون وحدة العبادة.

(٣) **وحدة السلوك في العادات والأخلاق:**

إن كل مسلم مطالب بالاقتداء برسول الله ﷺ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[5] مطالب

(١) سورة الأعراف / الآية ١٥٨ .

(٢) سورة الأنبياء / الآية ١٠٧ .

(٣) سورة سبأ / الآية ٢٨ .

(٤) سورة الذاريات / الآية ٥٦ .

(٥) سورة الأحزاب / الآية ٢١ .

بالاقتداء به في كل شيء، فالمسلمون جميعاً يأكلون على هيئة واحدة، وينامون على هيئة واحدة، بل حتى في قضاء الحاجة عندهم أدب واحد، هذا فضلاً عن الأخلاق التي حثهم عليها دينهم ونبيهم من صدق وصبر وإخلاص ووفاء واستقامة... ويمكننا القول: إنه لا توجد أمة أو دولة من الدول تتفق عاداتها وسلوكها وأخلاقها كما تتفق عادات وأخلاق وسلوك الأمة الإسلامية على اختلاف ألوانها وأجناسها.

(٤) **وحدة التاريخ:**

إن تاريخ المسلم الذي ينتسب إلي ويعتز به هو تاريخ الإسلام، وهذا التاريخ واحد، هو تاريخ الأمة الإسلامية كلها.

(٥) **وحدة اللغة:**

إن الإسلام عقيدة وعبادة وسلوك، واللغة إنما هي تعبير عن هذه المعاني فهي وسيلة لا غاية لذلك أرسل الله كل نبي بلسان قومه ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾[١] والقرآن الكريم أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين، فلا بد لمن يريد الدخول في هذا الدين ويصبح من هذه الأمة أن يتعلم لغة القرآن ألا وهي اللغة العربية، وكلما ازداد الإنسان إلماما باللغة العربية ازداد قدرة على فهم القرآن وفهم هذا الدين، وهذا الذي نعنيه بوحدة اللغة، فهي القاسم المشترك في التفاهم بين أبناء هذه الأمة الواحدة.

(٦) **وحدة المشاعر والتصورات والأفكار:**

إن طريق المسلمين في الحياة واضحة متميزة، هي طريق النبيين ﴿ **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** ﴾[٢] وعلى هذا فتصورات المسلمين وأفكارهم كلها تنبع من أن القرآن هو البصيرة التي يرون بها الأمور ﴿ **قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا** ﴾[٣] ﴿ **هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾[٤].

(١) سورة إبراهيم / الآية ٤ .
(٢) سورة الفاتحة / الآية ٧ .
(٣) سورة الأنعام / الآية ١٠٤ .
(٤) سورة الجاثية / الآية ٢٠ .

(٧) **وحدة الدستور والقانون:**

إن مصدر التشريع الإسلامي هو القرآن والسنة؛ والمسلمون لا يقرون ما خالف هذين الأصلين العظيمين والمصدرين الأصيلين من تشريعات أو قوانين، فكل ما ينظم حياة الأمة الإسلامية لابد أن يكون صادراً عنهما.

بهذه المظاهر تتضح وحدة هذه الأمة وتقوم أمتن ما يكون[١].

(١) راجع الإسلام لسعيد حوى ٢/ ١٠٧: ١١٠ .

صفات الأمة الواحدة

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[١] وقال سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[٢].

تحدثت هاتان الآيتان عن صفات الآمة الإسلامية، تلك الأمة التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس، وقد ذكرت الآية الأولى آية سورة البقرة صفة من أهم صفات هذه الأمة ألا وهي صفة الوسطية التي تعني الاعتدال والخيرية، وهذه الآية جاءت في سياق حديث القرآن الكريم عن تحويل قبلة المسلمين إلى البيت الحرام، لذلك يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: يقول الله تعالى إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يم القيامة شهداء على الأمم لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط هنا هو الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبا ودارا أي خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطا في قومه أي أشرفهم نسبا، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات، ولما جعل الله هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[٣].

ويقول العلامة الآلوسي: ومعنى وسطاً خياراً وعدولاً وهو في الأصل اسما لما يستوي نسبة الجوانب إليه كالمركز ثم استعير للخصال المحمودة البشرية لكونها أوساطا للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرفي الإفراط والتفريط كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين الجبن والتهور، ثم أطلق على المتصف بها إطلاق الحال على المحل واستوى فيه الواحد وغيره لأنه بحسب الأصل جامد لا تعتبر مطابقته[٤].

إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً فتقيم بينهم العدل والقسط وتضع لهم الموازين والقيم وتبدي فيهم رأيها فيكون هو

(١) سورة البقرة / الآية ١٤٣ .

(٢) سورة آل عمران / الآية ١١٠ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٩٦، والآية رقم (٧٨) من سورة الحج .

(٤) روح المعاني ٢/ ٤ .

الرأي المعتمد، وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد أو من الوسط بمعناه المادي الحسي[١].

هذا معنى الأمة الوسط كما ذكره المفسرون قديماً وحديثاً وهي أنها الأمة التي تحقق فيها العدل والاعتدال والخيرية، وهذا الوصف القرآني للأمة أعني ـ وصف الوسطية ـ وصف غني فتح الباب لمعان جديدة تضاف للمعاني السابقة ويحتملها اللفظ القرآني.

قال بعض الباحثين المحدثين[٢]: الأمة الوسط ليست طرفاً منعزلاً ولكنها وسط يتحرك بين العالمية، والوسط هنا معنى حضاري تتفاعل فيه عناصر الجغرافيا (المكان) وعناصر التاريخ (الزمان) وعناصر الإنسان، الوسطية هي حركة بالقيم ومنها، وهي تحريك لكل عناصر التوسط الجامع بين ثنائيات مفتعلة، ثنائيات تتراحم لا تتصارع، ثنائيات تتدافع لتحقيق الإعمار لا الهدم أو التخريب، حركة الأمة الوسيط تعبير عن الجعل الإلهي بالصيرورة: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) لتحقيق وظائف الاتصال والتعارف المفضي إلى حقائق الشهادة والحضور، والأمة هي خيرية بشروطها وحركتها وممارستها (الإيمان، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) الأمة هنا حقيقة لا وهم، الأمة قيمة بما تتفاعل به من عناصر الوسطية وحقائق الخيرية وحركة الشهادة[٣].

وهكذا يعطي هذا الوصف ـ وصف الوسطية ـ للأمة الإسلامية أبعاداً أخرى يجب عليها أن تعيها وأن تعمل على القيام بواجباتها بكل ما أوتيت من قوة وبقدر ما جعل الله لها من مكانة ومنزلة.

أما الآية الأخرى ـ أية سورة آل عمران ـ فقد تحدثت عن صفات أخرى من جوهر صفات هذه الأمة بل هي قوام حياتها وهذه الصفات هي (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله) وكان مقتضى الظاهر أن يقدم الإيمان بالله على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكن الله تعالى قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه السياج الذي يحمي العقيدة ويحمي الإيمان بالله، وقد ذكر الرازي جواباً آخر لسر التقديم فقال: إن الإيمان بالله أمر مشترك فيه

(١) الظلال ١/ ١٣١ .

(٢) هو الدكتور/ سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل. الأستاذ المساعد بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة .

(٣) مدخل القيم إطار مرجعي لدراسة العلاقات الدولية في الإسلام صـ١٦٥ .

بين جميع الأمم المحقة، ثم إنه تعالى فضل هذه الأمة على سائر الأمم المحقة فيمتنع أن يكون المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الإيمان الذي هو القدر المشترك بين الكل، بل المؤثر في حصول هذه الزيادة هو كون هذه الأمة أقوى حالاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من سائر الأمم، فإذن المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما الإيمان بالله فهو شرط لتأثير هذا المؤثر في هذا الحكم، لأنه ما لم يوجد الإيمان لم يصر شيء من الطاعات مؤثرا في صفة الخيرية، فثبت أن الموجب لهذه الخيرية هو كونهم آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، وأما إيمانهم فذاك شرط التأثير، والمؤثر ألصق بالأثر من شرط التأثير، فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ذكر الإيمان[1].وقد يسأل سائل فيقول: كيف تحصل أفضلية هذه الأمة على من قبلها من الأمم بهذه الأمور الثلاثة وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله؟ وهل الأمم السابقة لم يكن فيها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإيمان بالله؟ أقول: أورد هذا الاعتراض الإمام الطاهر بن عاشور وأجاب عليه فقال: وإذا قلت: إذا كان وجه التفضيل على الأمم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله فقد شاركنا في هذه الفضيلة بعض الجماعات من صالحي الأمم قبلنا لأنهم آمنوا بالله على حسب شرائعهم وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر لتعذر أن يترك الأمم الأمر بالمعروف لأن الغيرة على الدين أمر مرتكز في نفوس الصادقين من أتباعه؟ قلت: لم يثبت أن صالحي الأمم كانوا يلتزمون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إما لأنه لم يكن واجبا عليهم أو لأنهم كانوا يتوسعون في حل التقية، وهذا هارون في زمن موسى عليهما السلام عبدت بنو إسرائيل العجل بمرأى من ومسمع فلم يغير عليهم قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۞ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۞ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾[2] وأما قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾[3] فتلك فئة قليلة من أهل الكتاب هم الذين دخلوا في الإسلام مثل عبد الله بن سلام وقد كانوا فئة قليلة بين قومهم فلم يكونوا جمهرة الأمة[4]. المهم أن هذه الأمة ما كانت به خير أمة لا يحفظ ولا يدوم إلا بإقامة هذه الأصول الثلاثة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله) وما ترك قوم التناصح على الحق والخير إلا انحدروا من سيء إلى أسوأ كيف لا وقد أخبر الحق سبحانه وتعالى أن الناس جميعا في خسران إلا المؤمنين المتواصين على الحق والصبر فقال جل شأنه: ﴿ وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[5].

(١) مفاتيح الغيب ٨/ ١٩٧ .
(٢) سورة طه / الآيات ٩٢: ٩٤ .
(٣) سورة آل عمران / الآيتان ١١٣- ١١٤ .
(٤) التحرير والتنوير ٤/٥٠ : ٥٢ .
(٥) سورة العصر / ١: ٣ .

ثم إن هذه الدعوة إلى الخير لها مراتب:

فالمرتبة الأولى: هي دعوة هذه الأمة سائر الأمم إلى الخير وأن يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى، وهذا مطلوب منا بحكم جعلنا أمة وسطا شهداء على الناس، وبحكم قوله تعالى في وصف المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال: ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾[1] فالواجب دعوة الناس إلى الإسلام أولاً، فإن أجابوا فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

والمرتبة الثانية: هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً إلى الخير وأمرهم فيما بينهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وله طريقان: أحدهما: الدعوة العامة الكلية ببيان طرق الخير وتطبيق ذلك على أحوال الناس وضرب الأمثال المؤثرة في النفوس، وإنما يقوم على هذا الطريق خواص الأمة العارفون بالأحكام وفقه الدين وهم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[2] والطريق الثاني: الدعوة الجزئية الخاصة وهي التي تكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ويستوي فيه العالم والجاهل، وهو ما يكون بين المتعارفين من الدلالة على الخير والحث عليه، والنهي عن الشر والتحذير منه، وكل ذلك من التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وكل واحد يأخذ من الفريضة العامة بقدره[3].

هذه صفات الأمة الواحدة التي بها استحقت أن تكون خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، فأعظم بها من صفات، وأعظم بها من أمة لو سارت على تلك الصفات التي ميزها بها خالقها سبحانه وتعالى.

(١) سورة الحج / الآية ٤١ .
(٢) سورة التوبة / الآية ١٢٢ .
(٣) انظر تفسير المنار ٤/ ٢٣-٢٤ .

كلمة أخيرة

بقيت لنا كلمة أخيرة في موضوع الأمة، قد ذكرنا قبل ذلك كيف أن أمتنا أمة واحدة، وذكرنا بعض مظاهر هذه الوحدة، ثم ذكرنا صفات هذه الأمة الواحدة التي وصفها بها الله تعالى في كتابه، فلم يبقى إذا إلا واجبات هذه الأمة، وواجبات الأمة تتبلور في اتجاهين:

أما الاتجاه الأول: فواجبها نحو خالقها، وهذا الواجب يمثله قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾[1] إنه القيام بحق العبودية لله ربِّ العالمين، معتصمين في ذلك بمصدر عز هذه الأمة ألا وهو الإسلام منهجا وسلوكا.

وأما الاتجاه الثاني: فهو واجبها نحو بعضها، وهو ما يمثله بقية الآية سالفة الذكر ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾[2] إنه السعيَ إلى تحقيق الوحدة الفعلية بين أفراد هذه الأمة الواحدة التي سماها الله تعالى أمة واحدة.

ونستعير هنا بعضاً من مقترحات فضيلة الأستاذ الدكتور/ علي جمعة (مفتي الديار المصرية) في هذا المقام ـ أعني طريق تحقيق الوحدة للأمة في واقع معاشها ـ حيث يقول:

إذا كانت الأمة واحدة عبر التاريخ الماضي، وواحدة بعد بعثة النبي ﷺ، وواحدة في يومنا هذا على أساس عقائدها فلماذا لا نكون أمة واحدة أيضا في واقع معاشنا، ويمكن أن نضع برنامجا عمليا منبثقا منا يشتمل على:

أولاً: التقريب والتحالف بين دول المنطقة، ولنبدأ باقتراح الطريق السريع الذي يربط بين طنجة وعمان، وشبكة الطرق السريعة هذه هي أول خطوة في ربط البلدان بعضها مع بعض، وفي إذابة الفوارق. وهي لا تتدخل في استقلال الدول ولا في أنظمتها السياسية ولا شؤونها الداخلية، وهي لا تحتاج إلا إلى قرار ومال وتنفيذ، بل جزء كبير من ذلك الطريق موجود بالفعل ويحتاج إلى تفعيل وأن يقوم بدوره في ربط الدول بعضها مع بعض.

ثانياً: رفع تأشيرات الدخول والإقامة بين العالم العربي، وهو أمر مأخوذ في كثير من البلدان العربية، ولا يحتاج إلا إلى انتشار،

(١) سورة آل عمران / الآية ١٠٣ .

(٢) سورة آل عمران / الآية ١٠٣ .

ويمكن استثناء الأراضي المقدسة لتنظيم الحج والعمرة إليها بصورة تمنع من عدم الانضباط.

ثالثاً: السعي إلى تفعيل السوق المشتركة والتجارة البينية والاكتفاء الذاتي عن طريق المشروعات العملاقة كالتي بين مصر والسودان خاصة لزراعة القمح، فإذا كان طعامك من فاسك كان رأيك من رأسك، وأيضا التخصص وتقيم العمل بين الدول العربية للوصول إلى التكامل الاقتصادي.

رابعاً: هل نأمل في السعي الحثيث لتوحيد العملة بين الأقطار العربية ثم الإسلامية ولتأخذ وقتها من التنفيذ، وهو مطلب قديم كنا نسمع عنه من التيار القومي حتى حققته أوربا في صورة اليورو.

خامساً: وبعد ذلك هناك أساليب للوحدة مع الاحتفاظ بالهوية والخصوصية كالاتحاد الفيدرالي، وهو أمر يحتاج أيضا إلى رأي عام وتوجه صادق، وخطوط كثيرة للوصول إلى التواؤم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي بين الدول العربية وهو أمر ليس بمستحيل حتى لو اكتنفته بعض العقبات أو احتاج إلى كثير من الجهد والترتيب والإجراءات[1].

وهذا كلام طيب، وتلك أمنيات غالية، نسأل الله تعالى أن يوفق منا من يقوم بها أو حتى ببعضها وما ذلك على الله بعزيز، والله الموفق والهادي إلى صراط مستقيم، والحمد لله أولا وآخرا.

(١) من مقال بعنوان: (مفهوم الأمة) لفضيلة الأستاذ الدكتور/ علي جمعة. نشر بجريدة الأهرام في عددها الصادر يوم السبت الموافق/ ٣ من ربيع الآخر سنة ١٤٢٥هـ - ٢٢ مايو سنة ٢٠٠٤م.

مراجع البحث

(*) القرآن الكريم.

- الإسلام لسعيد حوى ط: مكتبة وهبة ١٩٧٧م.
- الإصابة في تمييز الصحابة للإمام ابن حجر ط: دار الجيل – بيروت.
- الأعلام لخير الدين الزركلي ط: دار العلم للملايين – بيروت.
- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ط: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ط: دار الكتب العلمية – بيروت.
- التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ط: دار سحنون للنشر والتوزيع بتونس.
- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ط: مكتبة النهضة الحديثة الطبعة الأولى ١٩٦٥م.
- التفسير القرآني للقرآن للسيخ عبد الكريم الخطيب ط: دار الفكر العربي.
- تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب..
- تهذيب التهذيب للإمام ابن حجر ط: دار الفكر – بيروت ١٩٨٤م الأولى.
- جامع البيان في تفسير القرآن للإمام محمد بن جرير الطبري ط: دار المعرفة – بيروت ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م الطبعة الرابعة.
- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ط: دار الكتب المصرية ١٩٥٤م الطبعة الثانية.
- ذيل التقييد لمحمد بن أحمد الفاسي ط: دار الكتب العلمية – بيروت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الآلوسي ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني ط: دار المعرفة – بيروت الطبعة الثانية.
- سير أعلام النبلاء للحافظ شمس الدين الذهبي ط: مؤسسة الرسالة – بيروت.
- صحيح ابن حبان بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط ط: بيروت.
- صحيح البخاري للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ط: دار ابن كثير اليمامة – بيروت.
- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- طبقات الحفاظ للسيوطي ط: دار الكتب العلمية – بيروت.
- طبقات المفسرين للداوودي نشر وهبة الطبعة الأولى ١٩٧٢م.
- فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن خان مطبعة العاصمة بالفلكي.
- في ظلال القرآن لسيد قطب ط: ثالثة دار الشروق ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
- القاموس المحيط للعلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام الزمخشري ط: دار المعرفة بيروت.
- لسان العرب للعلامة ابن منظور ط: دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي – بيروت الطبعة الثالثة ١٩٩٩م.
- مختار الصحاح للرازي المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٤م ط: ثامنة.
- مدخل القيم إطار مرجعي لدراسة العلاقات الدولية في الإسلام للدكتور/ سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

- مشكل القرآن لابن قتيبة أبي محمد عبد الله بن مسلم ط: دار المعرفة – بيروت.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تأليف: أحمد بن محمد ابن علي المقري الفيومي ط: المكتبة العلمية – بيروت.
- معجم الألفاظ والأعلام القرآنية للدكتور/ محمد إسماعيل إبراهيم ط: دار الفكر العربي.
- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العلمية لعمر رضا كحالة، مطبعة الترقي بدمشق ١٣٧٧هـ.
- معجم المفسرين تأليف: عادل نويهض ط: مؤسسة نويهض للتأليف والترجمة والنشر.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضع: محمد فؤاد عبد الباقي ط: دار الحديث بالقاهرة.
- المعجم الوجيز ط: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم) ١٩٩٠م.
- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي محمد بن عمر ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ط: دار الخلود للتراث بمصر.
- (*) جريدة الأهرام العدد الصادر يوم السبت الموافق ٣ من ربيع الآخر سنة ١٤٢٥هـ – ٢٢ مايو سنة ٢٠٠٤م.

فهرس

م	الموضوع	
١	المقدمة	٣
٢	الأمة في اللغة	٥
٣	إطلاقات الأمة في القرآن	٨
	إطلاق الأمة بمعنى الجماعة من الناس	٨
	إطلاق الأمة بمعنى الدين والملة	١٠
	إطلاق الأمة بمعنى الزمان والوقت	١٢
	إطلاق الأمة بمعنى الرجل الجامع للخير	١٤
	إطلاق الأمة بمعنى القرن من الناس أو أهل العصر	١٥
	إطلاق الأمة بمعنى أتباع الأنبياء	١٧
٤	الأمة الواحدة ومظاهر وحدتها	٢٠
٥	صفات الأمة الواحدة	٣٠
٦	كلمة أخيرة	٣٧
٧	مراجع البحث	٣٨
٨	الفهرس	٤١